ثقافة التعميم والتنميط

وهي الأخت التوءم لثقافة الاستئصال، وتعدّ من الآفات الاجتماعية المتجذرة في مجتمعنا، فنحن حين نطلق حكماً على شخص ما بناء على تصرفاته أو أفعاله أو أقواله ثم نعمم هذا الحكم على كل من يحيط بهذا الشخص من أقارب فإننا نسير قسراً نحو استئصال الآخر.

فتعميم حكم ما على جماعة ما أو عائلة أو مجموعة أشخاص يعني بالضرورة تهميش هؤلاء واستئصالهم من التداول الاجتماعي وحتى الإنساني.

فمثلاً يذكر شخص ما ويعمم على من حوله بالقول: "**قلم آيم**"، أو: "**قشّة لفّة**"، أو: " **لا تشلح حدا من رجلك**" أو، يقال: "**يلحّق الحبل بالدلو**".

إن عدنا إلى أصل المشكلة لمعرفة سبب هذا السلوك نجد أن هذا الأمر يطال معظمنا (كي لا نعمم ونقع بالخطأ ذاته) بدرجات متفاوتة، ومرد هذا السلوك الاجتماعي إلى عدة عوامل:

١- الخشية من التعبير عن الرأي قد يجعل البعض يلجأ إلى التعميم أولاً ثم يحاول حقن فكرته عبر هذا التعميم بما يعطيه ذريعة للتنصل من مسؤولية الفكرة أو الرأي. فقد جرى على لسان معظمنا مثلاً كلمة: "**العرب جرب**" مثلاً، أو: "**كلّو عند العرب صابون**".

هذا التعميم هو إرضاء ضمني وتغطية لأي تقصير أو سلبية قد يقوم بها البعض، ومن ثمَّ فإن التذرع بهذا القول قد يبرر أي عمل أو فعل أو قول يتسم بالسلبية وعدم القبول. لكن مثل هذا التعميم هو جلد للذات قبل أن يكون اتهاماً للآخرين، لأنه يطال الجميع.

٢- تحميل الحديث النبوي "العرق دساس....." ما لا يحتمل، فهو صحيح تماماً فيما يتعلق بالأمراض التي تنتقل عن طريق الجينات، وهو ما أثبته العلم، لكن البعض يسحب هذا الأمر على الصفات البشرية كالبخل والشر والطيبة والكرم والشجاعة والجبن والذكاء والغباء، مثلها مثل أي مرض وراثي، وهذا يفضي إلى تعميم الصفة السلبية لشخص ما على عائلته وأقربائه ولا أساس علمي لمثل هذا الأمر، وإلا لكان من الظلم أن يحاسب كل إنسان على عمله وتصرفاته لأنه سيتذرع بما وجد عليه الآباء والأجداد بحكم الوراثة. هذا الأساس الواهي للتعميم يمنع اكتمال دورة الحياة، لأن مثل هذه الصفات إذا كانت توارثية وكان الذكي لا يأتي إلا بذكي والبخيل لا يأتي إلا ببخيل إلى يوم القيامة فلن تبقى الأيام متداولة بين الناس كما وصفها القرآن الكريم.

٣- الفكرة المسبقة عن شيء ما قد تؤدي إلى التعميم وتفضي بالنتيجة إلى آفة أخرى وهي التمييز العنصري بين البشر، وهذا هو أسوأ ما قد يصل إليه التعميم بأن يتم التعامل مع الآخرين بحسب العرق أو الدين أو لون البشرة. فمثلاً هناك فكرة عامة أن أصحاب البشرة الداكنة يجيدون الرياضة وألعاب القوى وسريعون بالعدو، أو أن أصحاب الشعر الأشقر سيئو الخلق، أو كما في وقتنا الحالي - وكما قام الإعلام بتغذيته - أن المسلم إرهابي، أو أن الأفارقة كسالى وبطيئو الحركة، وغيرها من الأمثلة. مثل هذه الأمور موجودة في مجتمعاتنا، وأقرب مثال على ذلك هو تسمية نتداولها في المجتمع الشامي حيث نسمي الفستق السوداني "**بفستق العبيد**"، ولم يخطر ببالنا مصدر هذه التسمية، وقد كنا نكررها ببراءة ودون قصد إلى أن التقينا بصديق من السودان فسألنا مرة: هل ما زلتم تسمون الفستق السوداني بفستق العبيد؟ وإذا بها تسمية تعود إلى أن أشخاصاً من السودان كانوا يبيعون هذا النوع من المكسرات التي اشتهروا بزراعتها، وكان المجتمع الدمشقي يطلق على الفستق كلمة فستق العبيد إشارة إلى لون بشرتهم، ويربط الرقّ بلون البشرة، ومثلها تسمية أكلة محلية معروفة باسم "**راس العبد**" والتي لا ندرك أننا عندما نرددها فإننا نؤذي شريحة كبيرة من البشر من حيث

لا ندري، وإذا أريد شراء بيت جاهز أو دكان مؤسَّس بدلاً من التأسيس من الصفر قيل: "**شراية العبد ولا ترابيتو**"، وغيرها من الأمثلة الكثير.

ولكي نكون أدق بالتوصيف فإن المجتمع الشامي كان يميز حتى فيما يتعلق بالعمر؛ فمثلاً يطلق - حقيقة أو وهماً - بأن الكبير بالسن غير قابل للتعلم أبداً يقال: "**لما شاب ودُّوا الكتَّاب**"، أو يقال: "**بعد الكبرة جبة حمرا**" (الجبة هي نوع من لباس الرجال يشبه العباءة). أو ميز بين المرأة والرجل فقال عن المرأة: "**المرا من بيت جوزها لقبرها**"، أو قيل: "**المرا متل السجاد كل فترة بدها نفض**"، أو قيل: "**المرا متل السجاد العجمي على الدعس بجوهر**"، وكأنها صنف من الناس يجب أن يستأصل من الحياة الاجتماعية.

من الضروري لنا أن نقوم بمسح ومراجعة ذاتية لمخزوننا الفكري من أوصاف جاهزة وأحكام مسبقة، وأن يكون لدينا القابلية لاستئصالها مرة واحدة وإلى الأبد لتتجنب الأجيال القادمة التلفظ بهذه الأقوال والأمثال، ولتشجيعها على الانفتاح على الآخر بالحوار والوقوف على مخاطر التعميم الذي قد يفضي إلى الاستئصال والتمييز، وعلى تعلم قبول الفروق بين المجتمعات والاختلاف بين الثقافات للتأقلم مع الآخرين، وللعبور من ثقافة التعميم والاستئصال إلى ثقافة التأقلم والقبول والاحترام.

obeikandi.com